

المنهج البلاغي عند ابن سنان الخفاجي.

زينب بن قيراط

الدراسات – 09 09 09 09 09 09 09 09 09 09

الملخص:

يهدف هذا المقال إلى تبين المنهج البلاغي عند ابن سنان الخفاجي الذي حرص فيه على بيان سر الفصاحة بأسلوب العالم الأديب، مبتدئاً دراسته في جزئيات العمل الأدبي من الصوت إلى الكلمة، وشروط فصاحتها مفردة كانت أم في التأليف ضمن ما يتطلبه المعنى، مستشهداً في ذلك بالنصوص العربية وأميناً في نقله عن غيره.

كلمات مفتاحية: منهج ، بلاغة، سر الفصاحة ، ابن سنان الخفاجي.

Abstract:

The goal of this article is to express the concept the rhetorical method of Ibn Sinan al - Khafaji , who had given a new interpretation the secret of the eloquence in literature style, he began his studies by small parts in the literary works in details sound to word and the terms and conditions of their flowency in single or in compound. in order to what meaning required , he illustrated through the arabic textes with great credibility in his transfer than the others.

keywords:Method , Rhetoric , The secret of eloquence , Ibn sinan al-khafaji.

المنهج البلاغي عند ابن سنان الخفاجي:

مقدمة: ركز ابن سنان الخفاجي على تحديد معنى الفصاحة وإبراز معالم البلاغة، فسلك في بيان فكرته منهجاً علمياً دقيقاً، وفق معايير جمالية وضوابط نقدية فتحت طريقاً واسعاً لدراسة جهوده العظيمة لوضع الأسس الأولى للفنون البلاغية.

اعتمد في "سر الفصاحة" على المنهج الوصفي التحليلي وقد صرح عن ذلك قائلا: "ثم نبين هذا كله وأشباهه ماهية الفصاحة، ولا نخلي ذلك الفصل من شعر فصيح، وكلام غريب بليغ، يُتدرب بتأمله على فهم مرادنا، فإن الأمثلة توضح وتكشف، وتخرج من اللبس إلى البيان ومن جانب الإيهام إلى الإفصاح"⁽¹⁾. وبناء عليه سأذكر بعض النقاط لتوضيح منهجه البلاغي:

1- الأسلوب:

تميّز أسلوب ابن سنان الخفاجي بأنه أسلوب العالم الأديب الذي لا يطغى فيه ذوق الأديب على ذوق العالم⁽²⁾، وقد وضّح ذلك في خطبة كتابه، قائلا: "فإن لما رأيت الناس مختلفين في ماهية الفصاحة وحقيقتها أودعت كتابي هذا طرفا من شأنها، وجملة من بياها، وقربت ذلك على الناظر، وأوضحته للمتأمل، ولم أمل بالاختصار إلى الإخلال، ولا مع الإسهاب إلى الإملال"⁽³⁾. فأسلوبه أقرب إلى أسلوب المتأخرين من الجرجاني مما يجعل كتابه أكثر نفعا في تربية ملكة النقد⁽⁴⁾.

2- البحث من الجزء إلى الكل:

وإذا كان الخفاجي يدرس الأدب، فقد بدأ دراسته بالبحث في جزئيات هذا الأدب، فقبل أن يتكلم في الصورة الكلية تكلم في جزئيات هذه الصورة ومكوناتها، فالأدب عبارة وتركيب، والعبارة تتكون من كلمات انضم بعضها إلى بعض، والكلمة تتكون من مقاطع، وكل مقطع منها متكون من أصوات⁽⁵⁾، إذ أن من الأصوات ما يقبل وما ينفر عنه، ومن الكلمات ما يستحسن وما يستهجن، وواضح أن هذه الكلمات هي لبنات النص الأدبي، وبفصاحتها يفصح الكلام، وبعدم فصاحتها يفقد الكلام فصاحته، ولقد بين وجهة نظره في الفصاحة، وذكر شروط فصاحة الكلمة مؤيدا ذلك بالأدلة الكثيرة والشواهد الوفيرة للشعراء الفحول المتقدمين في صناعة الأدب⁽⁶⁾.

3- صحة النسق والنظم:

طرح ابن سنان الخفاجي مسألة صحة النسق والنظم من طريق حسن التخلص فقال: "ومن الصحة صحة النسق والنظم، وهو أن يستمر في المعنى الواحد وإذا أراد أن يستأنف معنى آخر أحسن التخلص إليه حتى يكون متعلقا بالأول وغير منقطع عنه، ومن هذا الباب خروج الشعراء من النسيب إلى المدح"⁽⁷⁾. وبين كذلك قضية النظم عندما فرق بين الفصاحة والبلاغة، وأن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ، وأن البلاغة لا تكون إلا وصفا للألفاظ مع المعاني⁽⁸⁾، وعلى حد قوله: "... وكل كلام بليغ فصيح، وليس كل فصيح بليغ كالذي يقع فيه الإسهاب في غير موضعه"⁽⁹⁾. فتطرق للحديث في النظم عند كلامه على الكلام المؤلف فقال: "المعاني وتأليف

الألفاظ هي صناعة هذا الصانع⁽¹⁰⁾ التي أظهرها في الموضوع⁽¹¹⁾⁽¹²⁾؛ فيكون بذلك راعى النظم عند تأليف الكلام من الألفاظ المنظومة بعضها مع بعض⁽¹³⁾.

ويواصل مناقشا مقارنا بين ناظم الكلام والنجار حين جعل الصانع الماهر هو البصير بمخدق صناعته، ويقبل عذره إذا سلم إليه خشب رديء، فظهرت صناعته فيه، فإنه عند ذلك لا يعاب لأجل الخشب⁽¹⁴⁾.

"فأما ناظم الكلام فقادراً على اختيار موضوعه، غير محذور عليه تأليف ما يؤثره منه، فمتى عدل عن ذلك جهلاً أو تسمحا توجه الإنكار واللوم عليه، وكان أهلاً له وجديراً به، على أن كلامنا في الصورة نفسها، ولا شبهة في قبح صورة الكرسي المصنوع من رديء الخشب، وإن كان النجار قد أحكم عمله"⁽¹⁵⁾.

فابن سنان فرق بين الخشب الرديء الذي سلم لصانع ماهر، فإن صانعه لا يوجد له نقد ولا لوم بخلاف مؤلف الكلام فيجب أن يختار الكلمات التي توافرت فيها شروط الفصاحة، حتى يجود أسلوبه، وإلا كان محلاً للإنكار والنقد، لأن له حرية الاختيار بين الكلمات الفصيحة التي توافرت فيها شروط الفصاحة، ولم يكتف بهذا في اختيار الكلمة، بل ذكر شروطاً وصفات يجب أن توجد في الكلام المؤلف⁽¹⁶⁾.

ومن شروط الفصاحة عنده أن يكون تأليف تلك اللفظة من حروف متباعدة المخارج وأن تجد اللفظة في السمع حسناً ومزية على غيرها، وأن تكون الكلمة غير وحشية ولا عامية، وأن تكون الكلمة جارية على العرف العربي الصحيح الخ...⁽¹⁷⁾.

هذا ما يتعلق بالأقسام المذكورة في الكلمة بانفرادها ونعود إلى ما يختص بالتأليف وينفرد له: "فمن وضع الألفاظ موضعها ألا يكون في الكلام تقديم وتأخير، حتى يؤدي ذلك إلى فساد معناه وإعراجه في بعض المواضع، أو سلوك الضرورات حتى يفصل فيه بين ما يقبح فصله في لغة العرب كالصلة والموصول وما أشبهها"⁽¹⁸⁾. ويذكر شروطاً لوضع الألفاظ موضعها:

- 1- أن لا يكون في الكلام تقديم وتأخير يفسد المعنى وإعراجه.
- 2- ومنه ألا يكون الكلام مقلوباً فيفسد المعنى ويصرفه عن وجهه.
- 3- ومنه ألا تقع الكلمة حشواً.
- 4- ومنه ألا يستعمل في الشعر والرسائل والخطب ألفاظ المتكلمين والنحويين وأشباههم الخ...⁽¹⁹⁾.

ونجد أن هذه الشروط من آراء المتأخرين حين ذكروا: "أن فصاحة الكلام فهي خلوصه من ضعف التأليف وتنافر الكلمات والتعقيد مع فصاحتها"⁽²⁰⁾. ويفرد كذلك فصلاً في آخر كتابه فيما يحتاج مؤلف الكلام إلى معرفته.

4- الاستشهاد بالنصوص القرآنية والأحاديث النبوية والأدبية (شعرا ونثرا):

أ- الاستشهاد بالنصوص القرآنية:

عندما يتناول قضية بلاغية بالدراسة والتحليل، يدلل على رأيه ببعض النصوص القرآنية ومن ذلك: أولاً: قول الله تعالى: "وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ"⁽²¹⁾. ذكرت هذه الآية الكريمة في مقام بيانه عن اللغة أهي تواضع أم توقيف، ورجح بأنها مواضعة تقدمت بين آدم عليه السلام وبين الملائكة على لغة سألته من خاطبه الله تعالى على تلك اللغة، وعلمه الأسماء ولولا تقدم لغة لم يفهم عنه عز اسمه،⁽²²⁾ وأما الزمخشري فيرجح بأنها توقيف⁽²³⁾. وأيضاً قوله تعالى: "وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ"⁽²⁴⁾.

عرض ابن سنان هذه الآية في سياق كلامه في الفصاحة، فالفصاحة عنده الظهور والبيان ومنها أفصح اللبن إذا انجلت رغوته، وفصح فهو فصيح، ويقال أفصح الصبح إذا بدا ضوءه، وأفصح كل شيء إذا وضح⁽²⁵⁾ وأكثر الكلام في "الفصاحة" وجعلها السبب في تأليف كتابه "سر الفصاحة" لما رأى الناس مختلفين في ماهيتها وحقيقتها، وأن كل ما ذكره فيه من الكلام على الأصوات والحروف وتأليفها ومخارجها لازم لبيان معنى الفصاحة؛ لأن الوقوف على معرفة معنى الفصاحة مهم في معرفة نظم الكلام ونقده، وفي معرفة بلاغة القرآن الكريم وذكر شروط لفصاحة الكلمة والكلام⁽²⁶⁾ وفرق بين الفصاحة والبلاغة واعتبر الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ والبلاغة لا تكون إلا وصفا للألفاظ مع المعاني، لا يقال في كلمة واحدة لا تدل على معنى يفضل عن مثلها بليغة، وإن قيل فيها فصيحة وكل كلام بليغ فصيح، وليس كل فصيح بليغ، كالذي يقع فيه الإسهاب في غير موضعه⁽²⁷⁾.

وكذلك قوله تعالى: "وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا"⁽²⁸⁾ وقد عرض هذه الآية الكريمة في سياق حديثه عن حسن الاستعارة، وقد حدّثها أبو الحسن علي بن عيسى الرّماني فقال: "هي تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة"⁽²⁹⁾.

وتفسير هذه الجملة أنّ قول الله تعالى استعارة، "لأن الاشتعال للنار، ولم يوضع في أصل اللغة للشيب فلما نقل إليه بأنّ المعنى لما اكتسبه من التشبيه، لأنّ الشيب لما كان يأخذ في الرأس ويسعى فيه شيئاً فشيئاً حتى يحيله إلى غير لونه الأول، كان بمنزلة النار التي تشتعل في الخشب وتسري حتى تحيله إلى غير حاله المتقدمة"⁽³⁰⁾. وعلى هذا فالمستعار لفظ الاشتعال والنار مستعار منه والشيب مستعار له⁽³¹⁾. فهذا هو نقل العبارة عن الحقيقة في الوضع للبيان، ولا بد من أن تكون أوضح من الحقيقة لأجل التشبيه العارض فيها، لأنّ الحقيقة لو قامت مقامها كانت أولى لأنّها الأصل والاستعارة الفرع⁽³²⁾. وقد أوجب ابن سنان أن تكون العلاقة بين المستعار له والمستعار منه

المشابهة، وقد يفهم ذلك عندما ذكر الفرق بين الاستعارة والتشبيه، وأن التشبيه لا يتغير فيه أصل الكلام، بل يبقى كل من المشبه والمشبّه به على أصله⁽³³⁾.

وأيضاً قوله تعالى: "وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ"⁽³⁴⁾ فقد عرضها ابن سنان الخفاجي لبيان أنّها من الإيجاز المحمود الذي يعده شرطاً من شروط الفصاحة⁽³⁵⁾.

لأنّ هذه الألفاظ على إيجازها قد عبّر بها عن معنى كثير، وذلك أنّ المراد بها أنّ الإنسان إذا علم أنّه متى قُتِل قُتِلَ كان ذلك داعياً له قوياً إلى ألاّ يقدم على القتل، فارتفع بالقتل الذي هو قصاص كثير من قتل الناس بعضهم لبعض، فكان ارتفاع القتل حياة لهم، وهذا معنى إذا عبّر عنه بهذه الألفاظ اليسيرة في قوله تعالى: "وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ" كان ذلك من أعلى طبقات الإيجاز⁽³⁶⁾. وقارن بين هذه الآية وبين ما يؤدي معناها من قولهم "القتل أنفي للقتل" وقال: إنّ بينهما تفاوتاً في البلاغة وذلك من أربعة وجوه⁽³⁷⁾:

- أحدهما أنّه ليس كل قتل ينفي القتل، وإنّما القتل الذي ينفيه ما كان على وجه القصاص والعدل، ففي ذكر القصاص بيان للمعنى وكشف للغرض.

- وثانيها أنّ في قوله تعالى: "وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ" من إبانة الغرض المرغوب فيه بذكر الحياة ما ليس في قولهم "القتل أنفي للقتل"، وهذه زيادة في الإيضاح.

- وثالثها أنّ نظير قولهم "القتل أنفي للقتل" (القصاص حياة) والقصاص حياة أوجز لأنّه عشرة أحرف، والقتل أنفي للقتل أربعة عشر حرفاً ورابعها أنّ في "القتل أنفي للقتل" تكريراً وليس في (القصاص حياة) تكرير، وتكرير الحروف عيب في الكلام⁽³⁸⁾.

إلاّ أنّ ابن سنان كانت نظرتّه إلى هذه الآية من جهة دلالتها على الإيجاز الذي هو من أعلى طبقات البلاغة، ومقارنتها بما استحسّن في هذا المعنى من قولهم "القتل أنفي للقتل" وتفوقها عليه من جهة البلاغة، وتعليل هذا التفوق دليل على خبرته بالأساليب البلاغية، وذكائه اللّامح وذوقه السليم الذي يدرك خصوصيات التراكيب⁽³⁹⁾.

وكذلك لقوله تعالى: "طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ"⁽⁴⁰⁾ فابن سنان عرض هذه الآية في بيان أنّ من الصحة صحة التشبيه، فقد مضى في كلامهم أنّ المشبه به يجب أن يكون معروفاً واضحاً أبين من الشيء الذي يشبهه، فما تقولون في قوله تعالى في شجرة الرقوم، فرؤوس الشياطين غير مشاهدة؟ قيل: إنّ الرقوم غير مشاهد ورؤوس الشياطين غير مشاهدة، إلاّ أنّه قد استقر في نفوس الناس من قبح الشياطين ما صار بمنزلة المشاهد، كما استقر في نفوسهم من حسن الحور العين ما صار بمنزلة المشاهد⁽⁴¹⁾. وكذلك قوله تعالى: "وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ"⁽⁴²⁾.

ويبين ابن سنان الخفاجي أنّ الأصل في حسن التشبيه هو أن يمثّل الغائب الخفيّ الذي لا يعتاد بالظاهر المحسوس المعتاد، فيكون حسن هذا لأجل إيضاح المعنى وبيان المراد⁽⁵¹⁾. ويضيف مؤكداً أنّ هذه التشبيهات كلها ما بيناه من تشبيه الخفي بالظاهر المحسوس والذي لا يعتاد بالمعتاد، لما في ذلك من البيان⁽⁵²⁾. مما تقدم اتضح أنّ: استشهاده بالنصوص القرآنية قليل إذا ما قارناه بالنصوص الأخرى.

ب- الاستشهاد بالأحاديث النبوية:

استدلّ ابن سنان على بعض القضايا البلاغية بالأحاديث النبوية ومنها: يستشهد ابن سنان من باب تعريف الفصاحة بما روي عن النبي (ص) أنّه قال: "أنا أفصح العرب بيد أنّي من قريش"⁽⁵³⁾. ويعلق ابن سنان في باب بيان أنّ من المناسبة بين الألفاظ في الصيغة السجع والازدواج، بما روي عن ابن عباس عن النبي (ص) أنّه كان يعوذ الحسن والحسين عليهما السلام فيقول: "أعيذكما بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة" (رواه البخاري) ولم يقل مُلَمّة لأجل المناسبة، وكذلك قوله (ص) في بعض الحديث: "ترجعن مأزورات غير مأجورات" (رواه ابن ماجه وأبو يعلى في سنده)، لأنّ مأزورات من الوزر والمستعمل موزورات، فجاء به هكذا لأجل المناسبة⁽⁵⁴⁾.

يتبين مما سبق أنّ ابن سنان ركز على فصاحة الكلمة، وتناسق حروفها مع بعض الكلمات الأخرى في الحديثين السابقين انطلاقاً من منحاه الأساسي في النقد، وهو الاهتمام بالمفردات في النص من حيث فصاحتها وتناسق حروفها⁽⁵⁵⁾.

فالملاحظ أنّ استشهاده بالأحاديث النبوية قليل جداً أو يكاد ينعقد بالمقارنة بالنصوص الشعرية والنثرية.

ج- الاستشهاد بالنصوص الأدبية:

1- النصوص الشعرية:

عني ابن سنان الخفاجي بإيراد الأمثلة الشعرية وأكثر منها، وقد بيّن ذلك في كتابه قائلاً: "فأما اقتصاري في أكثر ما أمثل به على المنظوم دون المنثور، مع أنّ كلامي عليهما واحد، فإنّما أقصد ذلك لكثرة المنظوم واشتهاره، ورغبتي في أن يسهل الوزن عليك حفظ ما أذكره، فإنّه داع قوي وسبب وكيد"⁽⁵⁶⁾.

أولاً: الكناية:

ذكر ابن سنان الخفاجي الكناية في موضعين من كتابه: الأول: ومنه حسن الكناية عما يجب أن يكنى عنه في الموضع الذي لا يحسن التصريح، والثاني: بيان أنّ من نعوت الفصاحة الإرداف وهو الكناية فيعرفها بقوله: "ومن هذا الجنس حسن الكناية عما يجب أن يكنى عنه في الموضع الذي لا يحسن فيه التصريح، وذلك أصل من أصول

ومن أمثلته من الشعر، ومما يستحسن من الكنايات قول امرئ القيس:

لأنه كفى عن المباذعة بأحسن ما يكون من العبارة؟⁽⁵⁸⁾. ومن هذا الفن أيضا من حسن الكناية قول أبي الطيب:

لأنّه كفى عن كذبها فيما ادّعته من شوقها بأحسن كناية، وكذلك قوله (59):

لأنّه أراد انهزم فكني عن هزيمته بعاقه الغزل، وتلك أحسن كناية في هذا الموضع⁽⁶¹⁾.

ومثال ذلك قول عمر بن أبي ربيعة:

ومنه قول امرئ القيس:

وَتَضَحَّى فَتَيْتُ الْمَسْكُ فَوْقَ فَرَاشِهَا نُؤُومُ الضُّحَى لَمْ تَنْتَطِقْ عَنْ تَفَضُّلِ

فإنه لما أراد أن يصف ترفه هذه المرأة ونعمتها قال: نؤوم الضحى يبقى فتيت المسك فوق فراشها لم تنتطق لتخدم نفسها، فعبّر بذلك عن غناها وترفهها وخفض عيشها، وأتى بالفاظ تدل على ذلك أبلغ مما لا يدل عليه قوله -إنها غنية مرفهة-⁽⁶⁶⁾.

والملاحظ أن ابن سنان الخفاجي يرى أن أصحاب صناعة البلاغة يذكرون الإرداف ولا يشرحون العلة في سببه وحسنه من المبالغة⁽⁶⁷⁾، - مع العلم- أن ابن سنان الخفاجي لم يفرق بينهما الكناية والإرداف؛ أي سار على خطى من سبقه أمثال السكاكي وابن المعتز والعسكري⁽⁶⁸⁾.

ثانياً: المعاضلة:

عرف ابن سنان الخفاجي المعاضلة قائلاً: "ومن وضع الألفاظ موضعها اللائق بها ألا يكون الكلام شديد المداخلة يركب بعضه بعضاً، وهذا هو المعاضلة التي وصف عمر بن الخطاب رضي الله عنه بن أبي سلمى بتجنبها فقال: كان لا يعاظم بين الكلام، لأن المعاضلة الداخلة"⁽⁶⁹⁾.

وقد غلط ابن سنان الخفاجي أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب، وبين خطأه فيه أبو القاسم الحسن بن بشر الأمدي رحمه الله، لأن أبا الفرج قال: "إن المداخلة التي تكره ووصف عمر رضي الله عنه زهيراً بتجنبها أن يدخل بعض الكلام فيما ليس من جنسه"⁽⁷⁰⁾. مثل: قول أوس بن حجر:

وذا تُ هَدْمَ عَارٍ نَوَاشِرُهَا تَصَمْتُ بِالماءِ تَوَلُّباً جَدَعَا

فسمي الصبي تَوَلُّباً والتولب ولد الحمار، وقول الآخر:

وما رقد الولدانُ حتى رأيتَه على البكرِ يَمْرِيه بِساقٍ وحافرٍ

فسمي رجل الإنسان حافراً، وهذا ليس من المعاضلة التي هي ركوب بعض الكلام بعضاً ومداخلة بعضه في بعض⁽⁷¹⁾.

ويعلق العسكري قائلاً: "فسمي قدم الإنسان حافراً، وهذا غلط من قدامة كبير، لأن المعاضلة في أصل الكلام إنما هي ركوب الشيء بعضه بعضاً، وسمى الكلام به إذا لم ينضد نضداً مستويًا، وأركب بعض ألفاظه رقاب بعض، وتداخلت أجزاءه... وتسمية القدم بحافر ليست بمداخلة كلام في كلام، وإنما هو بعد في الاستعارة"⁽⁷²⁾. والصحيح من تمثيل ذلك ما ذكره أبو القاسم الأمدي وهو قول أبي تمام:

خان الصَّفَاءَ أَخُ خَانَ الزَّمانِ أَخَا عنه فلمْ يَتَخَوَّنْ جِسْمَهُ الكَمْدَ

"لأن ألفاظ هذا البيت يتشبه بعضها ببعض، وتدخل الكلمة من أجل كلمة أخرى تجانسها وتشبهها، مثل: خان وخان يتخون وأخ وأخاً، فهذا هو حقيقة المعاضلة"⁽⁷³⁾.

وما أحفظ لأحد من الشعراء شيئاً من قبيله، وهو عندي غير حسن ولا مختار ولا داخل في وصف من أوصاف الفصاحة والبلاغة.

فأما مجانس التصحيف فقد ورد في شعر أبي عبادة، كقوله:
ولم يكن المغترُّ بالله إذ شرى ليعجزوا المعترُّ بالله طالبه
وكقوله:

وكأنَّ الشَّلِيلَ⁽⁹¹⁾ والنَّثْرَةَ⁽⁹²⁾ الحَصْدَا ء⁽⁹³⁾ منه على سليل غريف⁽⁹⁴⁾
وهذا أقل طبقات المجانس، لأنَّه مبني على تجانس أشكال الحروف في الخط، وحسن الكلام وقبحه لا يستفاد من أشكال حروفه في الكتابة، إذ لا علاقة بين صيغة اللفظ في الحروف وشكله في الخط⁽⁹⁵⁾.
مما سبق اتضح أنَّ أكثر المسائل البلاغية تعتمد في معالجتها على التلاؤم والتناسب.

2- النصوص النثرية:

استشهد به بالنصوص النثرية قليل ومن ذلك:
ومن النثر استدللَّ ابن سنان بما قال أبي علي البصير في بعض كلامه: "حتى عاد تعريضك تصريحاً وتبريضك
تصريحاً"⁽⁹⁶⁾.

أولاً: الترصيع:

هذا المثال ورد عند ابن سنان مستشهداً به على الترصيع في كلامه عن التناسب حيث قال: "وهو أن يعتمد
تصيير مقاطع الأجزاء في البيت المنظوم أو الفصل من الكلام المنثور مسجوعة، وكأنَّ ذلك شُبَّهَ بترصيع الجوهر في
الحلي، وهذا مما قلنا إنَّه لا يحسن إذا تكرر وتوالى، لأنَّه يدل على التكلُّف وشدة التصنع، وإنَّما يحسن إذا وقع قليلاً
غير نافر"⁽⁹⁷⁾.

فابن سنان يؤكِّد على التناسب بين الألفاظ من الترصيع، إلَّا أنَّه لا يحسن حسبه إذا تكرر وتوالى لأنَّه يصبح
تكلفاً وتصنعاً.

ثانياً: التمثيل:

كذلك ذكر ابن سنان من النثر ما استشهد على التمثيل وعدَّه من نعوت الفصاحة والبلاغة قائلاً: ما كتب به بن
الوليد بن يزيد لما بويع إلى مروان بن مُجَّد وقد بلغه توقفه عن البيعة له: "أما بعد، فإنِّي أراك تقدم رجلاً وتؤخر
أخرى، فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيَّهما شئت، والسلام"⁽⁹⁸⁾ وعلَّق عليه ابن سنان قائلاً: "فعبّر عن مراده
بمثال أوضحه وأوجزه"⁽⁹⁹⁾؛ أي أنَّ الغرض من التمثيل الإيضاح والإيجاز.

أغلب النصوص الشريفة التي أوردها في كتابه لم تحلل بل اكتفى بذكرها فقط.

5- الأمانة العلمية:

وكان ابن سنان الخفاجي أميناً في نقله عن غيره من العلماء، وعلى الرغم مما جاء في كتابه "سر الفصاحة" من عدم الترتيب⁽¹⁰⁰⁾ فإنه كان ينسب كل رأي إلى صاحبه أو مصدره ومن ذلك قوله: "وقد ذهب أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب إلى أن المعاني في صناعة الكلام موضوع لها، وذكر ذلك في كتابه الموسوم بنقد الشعر، وقال في كتابه في الخراج وصناعة الكتابة عند كلامه على البلاغة: إن اللغة تجري مجرى الموضوع لصناعة البلاغة..."⁽¹⁰¹⁾. وإذا تعذر عليه معرفة صاحب المصدر نسب لنفسه السهو والنسيان قائلاً: "...وقد وقفت في بعض المواضع على كلام في هذه الصناعة - لا أعلم الآن صاحبه قدامة أو غيره، لأنني قد أنسيته الكتاب الذي وجدته فيه- ..."⁽¹⁰²⁾.

مما تقدم نستنتج أن: ابن سنان الخفاجي عرض منهجه بأسلوب علمي أدبي معالجا جزئيات العمل الأدبي من الصوت إلى الكلمة، مبيناً شروط تحقق فصاحتها وهي مفردة وفصاحتها في التأليف والنظم فكان له الفضل في تقسيم تلك الدراسة وتفصيلها تفصيلاً دقيقاً واسعاً، مع أنه لم يبين محاسنها والآثار المترتبة عنها مستدلاً فيها بأمثلة كثيرة من النصوص العربية حريصاً على نسبة كل مثال لصاحبه، مما جعل المتأخرين ينهجوا منهجه في الدرس البلاغي.

الهوامش:

* القرآن الكريم.

(1) الخفاجي (أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان)، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (دط)، (1402هـ-1982م)، ص: 14-15، (من خطبة الكتاب).

(2) عبد العاطي غريب علي علام، البلاغة العربية بين الناقدين الخالدين عبد القاهر الجرجاني وابن سنان الخفاجي، ونشير إليه: بالبلاغة العربية، دار الجيل، بيروت، ط1، (1413هـ-1993م)، ص: 311-312.

(3) مص، ص: 13، (من خطبة الكتاب).

(4) مص، ص: 08، (انظر ابن سنان الخفاجي حياته وعصره وكتابه).

(5) بدوي طبانة، البيان العربي دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، ط2، (1377هـ-1958م)، ص: 95-96.

(6) عبد العاطي غريب علي علام، البلاغة العربية، ص: 314-315.

(7) سر الفصاحة، ص: 268.

- (8) مص، ن، ص: 94.
- (9) مص، ن، ص: 59.
- (10) مص، ن، ص: 93.
- (11) مص، ن، ص ن.
- (12) مص، ن، ص: 95.
- (13) مص، س، ص: 95.
- (14) مص، ن، ص ن.
- (15) مص، س، ص ن.
- (16) مص، س، ص ص: 95-96.
- (17) مص، س، من ص: 97 إلى ص: 111.
- (18) مص، ن، ص: 111.
- (19) مص، ن، من ص: 111 إلى ص: 232.
- (20) عبد المتعال الصّعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، مكتبة الآداب، (دط)، (دت)، 17/1.
- (21) سورة البقرة الآية: 31.
- (22) ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، ص: 49.
- (23) انظر، الزمخشري (جار الله أبي القاسم محمود بن عمر)، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق وتعليق ودراسة الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، شارك في تحقيقه: فتحي عبد الرحمن أحمد حجازي، مكتبة العبيكان، الرياض، 1، (1418هـ - 1998م)، 252/ - 253، وانظر، عبد العاطي غريب علي علام، البلاغة العربية، ص: 316.
- (24) سورة القصص الآية: 34.
- (25) سر الفصاحة، ص: 58.
- (26) عبد العاطي غريب علي غلام، البلاغة العربية، ص ص: 48-49.
- (27) مص، س، ص: 59.
- (28) سورة مريم الآية: 04.
- (29) يعترض العلوي على هذا التعريف ويورد قائلا: "فلأنّ هذا يلزم منه أن يكون كل مجاز من باب الاستعارة، وهو خطأ... وأما ثانيا فلأنّ هذا يلزم عليه أن تكون الأعلام المنقولة يدخلها المجاز وتكون من نوع الاستعارة وهو باطل..."
- (انظر، العلوي (يحيى بن حمزة بن علي بن ابراهيم)، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، دار الكتب الخديوية، مصر، (د ط)، (1332هـ - 1914م)، 198/1 - 199)، وابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، ص: 118.

- (30) مص، ن، ص: 118.
- (31) عبد العاطي غريب علي علام، البلاغة العربية، ص: 325.
- (32) مص، س، ص: 118.
- (33) مص، س، ص: 214.
- (34) سورة البقرة الآية: 179.
- (35) مص، س، ص: 326.
- (36) ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، ص: 209.
- (37) مص، س، ص: 326.
- (38) مص، س، ص: 209 ، وانظر ، الرماني (أبو الحسن علي بن عيسى)، النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي ، حققها وعلّق عليها : مُجّد خلف الله أحمد ومُجّد زغلول سلام، دار المعارف ، مصر، ط 1976، 3م، ص: 77-78.
- (39) مص، س، ص: 327.
- (40) سورة الصافات الآية: 65.
- (41) سر الفصاحة، ص: 254-255.
- (42) سورة هود الآية: 44.
- (43) مص، س، ص: 225.
- (44) عبد العاطي غريب علي علام، البلاغة العربية، ص: 322.
- (45) انظر، مص، ن ، ص ص: 322-323، والباقلاني (أبو بكر محمد بن الطيّب) ، إعجاز القرآن ، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، (دط)، (د ت)، من ص: 16 إلى ص: 19.
- (46) سورة الجمعة الآية: 05.
- (47) سر الفصاحة، ص: 246.
- (48) قدامة بن جعفر (أبو الفرج)، نقد الشعر، تحقيق وتعليق : مُجّد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان ، (دط) ، (د ت)، ص: 124.
- (49) عبد العاطي غريب علي علام، البلاغة العربية، ص: 323.
- (50) الجرجاني (أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن مُجّد) ، أسرار البلاغة ، قرأه وعلّق عليه : أبو فهر محمود مُجّد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، دار المدني، جدة ، (دط)، (د ت)، ص: 101.
- (51) سر الفصاحة، ص: 246.
- (52) مص، ن، ص: 247.

- (53) مص،ن،ص:59.
- (54) مص،ن،ص:177.
- (55) عبد العاطي غريب علي علام،البلاغة العربية،ص:333.
- (56) مص،س،ص:77.
- (57) مص،ن،ص:163.
- (58) ابن سنان الخفاجي،سر الفصاحة ، ص:163.
- (59) مص،ن،ص:165.
- (60) فنّا خسر : الملقب عضد الدولة أبي علي الحسن ابن بُوَيّه الديلمي ، ابن خلّكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن مُحمّد بن أبي بكر) ، وفَيّات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ونشير إليه : بوفَيّات الأعيان ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر، بيروت ، (دط) ، (دت) ، (50/4،باب الفاء والنون وما يليهما).
- (61) مص،س،ص ن.
- (62) مص،ن،ص ص:229-230.
- (63) (تقي الدين أبي بكر علي) ، خزانة الأدب وغاية الأرب ونشير إليه : بخزانة الأدب ، شرح : عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1987م ، 2/ 263.
- (64) من أشرف قريش.
- (65) مص،س،ص:230.
- (66) مص،ن،ص ن.
- (67) مص،ن،ص:231.
- (68) انظر، السكاكي (أبو يعقوب يوسف بن مُحمّد بن علي)، مفتاح العلوم ، حققه وقدم له وفهرسه : عبد الحميد هنداي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، (1420هـ-2000م)، ص:521 ، وابن المعتز (عبد الله)، كتاب البديع ، نشر و تعليق المقدمة والفهارس : إغناطيوس كراتشكوفسكي ، دار المسيرة ، بيروت ، ط3 ، (1402 هـ-1982م)، ص:64، والعسكري(أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل)، كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر) ، ونشير إليه: بالصناعتين ، تحقيق : علي مُحمّد الجاوي ومُحمّد أبو الفضل ابراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، ط1 ، (1371هـ - 1952م) ، من ص:350 إلى ص:352.
- (69) سر الفصاحة،ص:157.
- (70) مص،ن،ص ن.
- (71) مص،ن،ص:158.
- (72) الصناعتين،ص:163.

- عساكر) الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله بن عبد الله الشافعي) ، تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من واديهما وأهلها ونشير إليه : بتاريخ مدينة دمشق، دراسة وتحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي ، دارالفكر ، بيروت ، لبنان ، (د ط) ، (1415هـ) ، 301/ 62 ، وانظر، ابن سنان الخفاجي، سرفصاحة، ص: 198.
- (89) مص، ن، ص: 198.
- (90) مطايا : جمع مطبة : وهي الناقة التي يركب مطاها ، والمطبة : البعير يمتطي ظهره ، (ابن منظور، لسان العرب، 15/ 286، مادة مطا) .
- (91) الشليل : الغلالة التي تلبس فوق الدرع، (مص، ن، 362/ 11، مادة شلل) .
- (92) النثرة : الدرع السلسلة الملبس، وقيل : هي الدرع الواسعة، (مص، ن، 193/ 5، مادة نثر) .
- (93) الحصداء : ودع حصداء : صلبة شديدة محكمة، (مص، ن، 152/ 3، مادة حصد) .
- (94) غريف : الأجمة من البردي والحلفاء والقصب (مص، ن، 265/ 9، مادة غرف) .
- (95) مص، س، ص : 198-199.
- (96) مص، ن، ص : 190.
- (97) مص، ن، ص ن.
- (98) مص، ن، ص : 233.
- (99) مص، ن، ص ن.
- (100) عبد العاطي غريب علي علام، ص : 315.
- (101) مص، س، ص : 94.
- (102) مص، ن، ص : 95.